معنى التجديد

والتجديد يعني جعل الشيء جديداً، فتجديد الدين يعني إعادة نضارته ورونقه وبهائه، وإحياء ما اندرس من سننه ومعالمه، ونشره بين الناس.

وهذا اللفظ (التجديد) يؤكد أن التجديد الموعود لا بد أن يكون على حين فترة من العلماء، واضمحلال لشأن أهل الحق وحملة السنَّة، فيبعث الله هؤلاء المجدّدين ليعيدوا للناس الثقة بدينهم، ويعلموهم ما جهلوا من شأنه. وهكذا يبدو جلياً أن التجديد لا يعني بحال من الأحوال إضافة شيء جديدٍ إلى الدين، كما أنه لا يعني بحالٍ من الأحوال اقتطاع شيء منه ونبذه. فهذا وذاك ليسا في الحقيقة تجديداً، وإنما هو مسخٌ وتجريد.

ليس من التجديد:

١ـ فالطريق الذي سلكه الفيلسوف الهندي (محمد إقبال)، والنتائج التي توصل إليها في محاضراته: (تجديد الفكر الديني في الإسلام) ليست إلا تفسيراً كلياً للدين بمجموع مكوناته: الألوهية ـ النبوة ـ البعث ـ الجزاء... إلخ.. هذا التفسير أو التصور الذي يلتقي في معظمه مع مذهب الفلاسفة الاتحاديين الذين يرون الخلق مظهراً يتجلى فيه الخالق، ليس تجديداً للعقيدة (أو كما سمّاها: الفكر الإسلامي)، ولكنه تجريد له من حقيقته الإلهية، وإضفاء للفكرة الصوفية الفلسفية عليه.

والاتجاه العقلاني ـ عامة ـ الذي يحاول تفسير النصوص الشرعية وفق مقتضيات الفلسفة البشرية، ويلوي عنق النص لياً ليتفق معها ليس تجديداً للدين؛ لأن تجديد الدين يعني تثبيت معالمه وعقائده وأحكامه ليظهر تميزها واختلافها عما سواها من الأديان المحرفة المنسوخة أو من الآراء والفلسفات القاصرة، وليس يعني إذابة تميزه وخلخلة بنائه لينسجم مع هذه أو تلك.

٢ ـ والمنهج الإسلامي الذي اختطه بعض الدعاة استجابة للضغوط الواقعية والمتغيرات الاجتماعية والدولية ـ كما زعموا ـ واقتنعوا بموجبه بضرورة استبعاد بعض القضايا الشرعية والعقدية المسلَّمة لدىٰ الأمة وعلمائها منذ عصر الصحابة حتىٰ اليوم. ثم رأوا أنه لا يستقيم منهجهم إلا إذا هدموا الأسس التي بنيت عليها تلك القضايا ليتسنىٰ لهم أن يتحركوا بحرِّية، فرفعوا عقيرتهم بالمطالبة بتجديد هذه الأسس وتلك الأصول؛ فلا بدّ ـ في نظرهم ـ من إعادة النظر في (أصول الفقه) و (أصول الحديث) و (علم الجرح والتعديل)، بل من إعادة النظر في العقائد الإسلامية، وإخضاعها للنظرة العقلية المعاصرة!

إنها المدرسة العقلية تطلُّ من جديد، وإن كانت لا تلتزم بذات الأصول التي تواضع عليها العقلانيون الأوائل. وليس ثمة اعتراض منا علىٰ ضرورة صياغة أصول الفقه مثلاً صياغة تلائم العصر، أو تنقيح مسائله وقواعده علىٰ ضوء الأدلة من القرآن والسنَّة، ولا اعتراض لنا

على ضرورة كتابة أصول الحديث كتابة جديدة من حيث التوسُّع في موضوعاته، ودراستها، وترجيح بعضها على بعض بالأدلة الصحيحة، مع مراعاة الأسلوب الجيد والإخراج الملائم.

ولا اعتراض لنا على ضرورة دراسة جوانب العقيدة ـ كما هي عند السلف ـ وإخراجها للناس أو تغيير طريقة عرض بعض القضايا المتعلقة بها، وربط الدراسة العلمية بالأوضاع المستجدة كقضية الحكم أو الولاء ـ مثلاً ـ.

ولا اعتراض لنا على ضرورة الدراسة الشرعية المتعمقة للقضايا البشرية الجديدة التي لم يتكلم فيها السلف ـ رحمهم الله ـ؛ لأنها لم توجد في زمانهم فلم تدع الحاجة إلى الحديث عنها. كل هذا مما نطالب به ونعتبره من صميم عملنا في خدمة هذا الدين. لكن أن يتحول الأمر إلى (تغيير) لشيء نعتقد أنه (جزء) من الدين فهذا ما لا نرتضيه، بل نعتبره تعدياً لحدود الله، وخللاً خطيراً في (الاستسلام) الذي هو روح الإسلام.

وقديماً قال بعض السلف: (إن قَدَم الإسلام لا تثبت إلا على قنطرة التسليم)[1].

---

(١) رسالة: (عقيدة السلف وأصحاب الحديث)، للإمام الصابوني، ضمن مجموعة الرسائل المنيرية، ١/ ١٢٠.

فالتجديد المقصود المنشود ليس تغييراً في حقائق الدين الثابتة القطعية لتلائم أوضاع الناس وأهواءهم، ولكنه تغيير للمفهومات المترسبة في أذهان الناس عن الدين، ورسم للصورة الصحيحة الواضحة، ثم هو بعد ذلك تعديل لأوضاع الناس وسلوكهم حسبما يقتضيه هذا الدين.

إن أي حركة تستهدف تغيير معالم الدين تكون في حقيقتها هدماً له وقضاء عليه، وإن بدا أنها تدعو إليه، أو تحقق له بعض المكاسب الآنية.

ونلحظ في كلمتي (**الأمة**) و(**دينها**) أن الأصل فيهما العموم والشمول، فهذه الحركة التجديدية التي تقوم عبر التاريخ الإسلامي في كل وقت يضعف فيه الخير وينكمش، تستهدف إصلاح الأمة بكاملها في جميع أقطارها على مستوياتها كافة، فهي ليست حركة إقليمية محدودة تقف عند بلد معين لا تتعداه أهدافها وطموحاتها، وليست مقصورة على فئة معينة من الفئات التي تكوّن المجتمع؛ بل تخاطب الشاب والشيخ والعامل والموظف والقريب والبعيد والرجل والمرأة، تخاطب كل فئة على قدر ما تحتمله عقولها، وبالأسلوب الذي يناسبها، فالإسلام لم ينزل ليكون ديناً لفئة خاصة من العقلاء الأذكياء مثلاً! كلا، بل الإسلام إنقاذ للبشرية ـ كلها ـ من ظلمات الكفر بأنواعه في الدنيا، ومن ظلمات النار والسعير يوم القيامة. وقد آن الأوان أن يعقل المسلمون والدعاة إلى الله خاصة ـ هذا المعنى فلا يحجبون الخير عن سائر فئات الناس ممن يتطلعون إلى الهداية ويتقبلونها، ولو كانت استجابتهم تقف عن حد معين.

إن مجرد هداية فرد إلى الله تعالى، ووصله بحبل الله المتين، وإنقاذه من الكفر والشرك يعدُّ هدفاً بذاته، ومكسباً عظيماً للداعي والمدعو، حتى لو وقف الأمر عند هذا القدر؛ فكيف إذا أصبح هذا المدعو يحمل الدين الصحيح لمن حوله بحماس أو بغير حماس؟! وقد آن الأوان أن يتحرك الدعاة الصادقون إلى ميدان عملهم الأصيل: (الأمة).. الأمة التي عبثت بها أيدي المفسدين من: اليهود والنصارى والشيوعيين والمخرفين من الصوفية والرافضة والمعتزلة وغيرهم. هذا على صعيد (الأمة) الممتد الفسيح.

مجالات التجديد:

وحين نلحظ بجوار ذلك الكلمة الأخرى: **(من يجدد لها دينها)** نجدها تفتح أمام الدعاة آفاقاً جديدة في طبيعة التجديد ونوعه.

إن هذا التجديد (للأمة) لا ينحصر في مجال واحد فحسب، بل يمتد امتداداً آخر ليشمل تجديد الدين كله: فيشمل:

أولاً: التجديد في مجال العقيدة:

وهيهات أن يكون التجديد يعني إضافة شيء آخر إلى العقيدة الإسلامية، كلا.. بل التجديد هو تخليص العقيدة من هذه الإضافات البشرية لتصبح نقية صافية ليس فيها أثر لصنع البشر وآرائهم وفلسفاتهم. ولتفهم كما فهمها بسهولة ووضوح ـ سلف هذه الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

فأول خطوة في مجال التجديد العقدي هو تنقية العقيدة الإسلامية من آثار علم الكلام ومن جميع ما علق بها.

ومن التجديد في مجال العقيدة ربط آثارها الواقعية بها، فلا يكفي أن يؤمن المرء بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله على مقتضى ما يدين به أهل السنَّة إيماناً عقلانياً جافاً، بل لا بد من العمل على إحياء الآثار القلبية النابعة من صدق الإيمان.

لا بد أن تطرق المعاني الباطنة التي هي جزء لا يتجزأ من العقيدة والإيمان: عمل القلب، وعمل القلب هو الحب والبغض والخوف والرجاء والرغبة والرهبة والإنابة والخشوع. ولقد غفل الناس عن هذه المعاني، حتى العلماء - إلا من رحم الله - فطال الأمد، وقست القلوب، وصار الحديث عن صحة القلب ومرضه وعلاجه، وعن المعاني الإيمانية القلبية وقفاً على الصوفية الذين أسرفوا وغلوا حتى عبدوا ذواتهم ومشايخهم، فضلوا وأضلوا كثيراً عن سواء السبيل. ولقد كان أئمة السلف نماذج حية في صدق اللجأ إلى الله، وعمق الصلة به، ويقظة الضمير وحساسيته من جراء ذلك، وأوفى الناس حظاً من ذلك صحابة رسول الله ﷺ ثم التابعون لهم بإحسان، ثم العلماء العاملون على مدار القرون. ومن يتأمل سيرهم وأحوالهم يجد من ذلك الشيء العجيب الغريب.

إن من واجب الحركة التجديدية أن تولي هذه القضية عناية كبيرة،

فهي الأثر العملي المباشر للتصديق بالعقيدة؛ ولذا نجد أن الله ـ تعالى ـ بعد ما أثنى على المؤمنين بتصديقهم بيوم الدين، أتبع ذلك بذكر إشفاقهم من عذاب الله، فقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾.

[المعارج: ٢٦ – ٢٨].

وإن معالجة الانحراف الظاهر على المستويات كافة لا تستقيم إلا إذا صاحبها معالجة الانحراف الباطني؛ فما من فساد ظاهر إلا وله رصيده من الفساد الباطني، ولا يحصل تغير الظاهر إلا بتغير الباطن.

وإن توجيه الناس لالتزام الأوامر واجتناب المناهي لا يستقيم إلا إذا صاحبه تربية للضمير وإحياء للمشاعر القلبية الصادقة التي تقف كالحارس اليقظ الساهر الذي يمنع تسلل الضعف أو التقصير. فهذا على ما وصفناه من أعظم أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولكن طرح مثل هذه الموضوعات لا يحسنه كل أحد، ولا يفلح فيه ويثمر إلا من كان يتكلم عن وجدٍ وانفعال، أما عملية (التكلف) فلا تجدي شيئاً.

إن على الداعية الصادق أن يتعاهد قلبه، ويحرك أشواقه ليكون لكلامه التأثير المطلوب.

ومن التجديد المطلوب في مجال العقيدة: عرض الانحرافات الجوهرية التي تعيش اليوم بين المسلمين مما له تعلق بجوانب الاعتقاد، مع بيان خطرها وتأثيرها، والتحذير منها.

فالحديث عن موالاة الكافرين وحكمها وتأثيرها في النفوس، والخطر الزاحف بسببها سواء على مستوى الفرد أو الجماعة أو المجتمع، والتركيز على ضرورة استقلال الأمة المسلمة وتميزها، واستعلائها بإيمانها وشريعتها على الأوضاع والعقائد والنظم الجاهلية ـ هذا الحديث وربطه بقضية العقيدة أصبح مطلباً مُلِحّاً لمواجهة لحوق كثير من المنسوبين إلى هذا الدين بمعسكرات الكفر، وربط كثير من الأمم المسلمة مصيرها بالكافرين، والولاء السافر المكشوف الذي يعطيه الحاكمون لأعداء الله، والانفتاح الرهيب للمسلمين على المجتمعات والشعوب الوثنية والنصرانية و غيرها.

والحديث عن قضية الحكم بغير ما أنزل الله، وحكمه، وضرورة رد الأمور كلها إلى شرع الله؛ لأن هذا هو مقتضى الإسلام والتسليم، وشرط الإيمان الذي لا يكون إلا به. وتربية الأفراد والمجتمعات على الولاء لشريعة الإسلام، والحذر من تنقصها أو اعتقاد أفضلية غيرها، أو مساواته لها، أو جواز الحكم بغيرها، بحيث يصبح الإيمان المطلق بشريعة الله قناعة راسخة لدى كل مسلم، حتى لو فرضت عليه النظم البشرية الجاهلية.

كل ذلك أصبح طَرْقه والتركيز عليه ضرورة في ظل سيطرة القانون الوضعي على المسلمين من جهة، وانتشار الأفكار المشككة في الإسلام وصلاحيته للبقاء والحكم من جهة ثانية.

ومثل هذا وذاك التركيز على توحيد العبادة، وخاصة في البلاد التي جهل الناس فيها معنى الألوهية وصرفوا العبادة للشيوخ والأولياء، وقدسوا الضرائح أكثر من تقديس المساجد!

وبالجملة فالتأكيد على أمر من أمور العقيدة لا يعني أن هذا الأمر أخطر من غيره من القضايا التي لم يعنَ بها بنفس القدر؛ لأن الدعوة إلى الله تهتم بمعالجة جوانب الانحراف، وحيثما اتسعت دائرة الانحراف في مجال كانت الحكمة في التركيز عليه مع عدم إهمال ما عداه.

ثانياً: التجديد في مجال النظر والاستدلال:

ويشمل التجديد مجال النظر والاستدلال، وإحياء الحركة العلمية التي تهدف إلى دراسة القضايا الشرعية كلها دراسة مبنية على الدليل الشرعي الصحيح بعيداً عن عصبية المذاهب. فلسنا نعتقد أن الحق محصور في مذهب بعينه لا يخرج عنه بحال؛ ولذا فالبحث عن الحق هو ضالة المسلم المنشودة، أنى وجده سَعِد به وقبله غير ناظر إلى هذه الحواجز المذهبية. ولضمان سير منهج التفقه والاستنباط سيراً سليماً بعيداً عن الانحراف أو الفوضى التشريعية؛ فلا بد من صياغة المنهج السليم للتفقه من خلال استقراء طريقة السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين.

ثالثاً: التجديد في السلوك الفردي والاجتماعي:

بالعمل على صياغة حياة المسلمين بتفصيلاتها صياغة إسلامية شرعية، والاستفادة من المعاني الوجدانية القلبية التي يفترض أنها بدأت

تستيقظ في النفوس، بربط الأحكام التفصيلية بها.

إن الانحراف السلوكي في حياة المسلمين المؤمنين حقاً بهذا الدين يرجع إلى أحد سببين:

١ـ إما الجهل بحكم الله ورسوله في هذه المسألة.

٢ـ وإما ضعف الإيمان وضعف الإرادة بحيث تغلب الإنسان شهوته، أو تغلبه ظروفه فيقع في المحظور. فمعالجة الجهل هي بالتعليم والتفهيم وربط الناس بالنصوص الشرعية، ومعالجة الضعف الداخلي هي بمخاطبة القلوب والتأثير عليها.

ومما نلحظه في واقع المتصدين للوعظ والتعليم اليوم أن كثيراً منهم يعنى بذكر الله واليوم الآخر والجنة والنار وعذاب القبر والموت وسكراته. وبغضِّ النظر عن ركاكة الأسلوب الذي يستخدمه أكثر هؤلاء، وعدم قدرتهم على التسلل اللطيف إلى قلوب السامعين؛ فإن الخطأ الذي نشير إليه هو أنهم لا يربطون المعاني التي أثاروها بقضايا سلوكية واقعية يجب أن تعالج.

وفئة أخرى من أهل الفقه تُعنى ببيان الحلال والحرام وسائر الأحكام، وبغض النظر عما يلاحظ عليها في منهجها ونتائجها ووسائلها؛ فإن الأمر الذي نلحظه الآن هو عدم ربط هذه الأحكام بأصولها الإيمانية التي تدعو إلى العمل بها وامتثالها.

وأنت حين تتأمل طريقة القرآن والسنَّة تجد أنه في الفترة المدنية حيث

تتابع نزول الأحكام التفصيلية المنظمة لحياة المسلمين، أصبح الحديث عن الحكم مرتبطاً بإثارة العقيدة، وأصبح الكلام في العقيدة مستمراً في التحريض على امتثال الحكم، ولذلك تذيل الآيات ببيان صفة من صفات الله كالعلم والحكمة والعفو والمغفرة والانتقام وشدة العقاب. . أو تتبع آيات الأحكام بآيات أخر تُرغِّب في عفو الله ورضوانه والجنة، وتحذِّر من سخطه والنار.

وإذا أحسن الداعية سلوك هذا الطريق فسيجد فيه خيراً كثيراً، وسيلمس آثاره الواضحة من قريب.

رابعاً: ويشمل التجديد فضح المناهج والاتجاهات والأوضاع والمبادئ والسبل المخالفة للإسلام:

ليحيا من حيَّ عن بيِّنة، ويهلك من هلك عن بيِّنة. ولقد كان من مهمة الأنبياء والمرسلين ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ كشف طريق الضلال لئلا يلتبس بطريق الحق، فكان النبي يقول: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ**﴾ [**الشعراء**: ١٥٠ – ١٥٢]. واستبانة سبيل المجرمين هي من مقاصد القرآن: ﴿**وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ**﴾ [**الأنعام**: ٥٥].

فمن مهمات الدعوة الإسلامية على مدى الزمن أن تزيل أي التباس أو غموض قد يصيب الناس، يلبس فيه المنافق ثوب المؤمن الصادق، والمبتدع الضال ثوب المتبع المهتدي.